العزلة عن قناعة روحيّة

عبد الحكيم حيدر

بلا رسالة ولا يحزنون، وبلا مرارة أو أيّ ضيق من خلق الله، أعني ذلك الخفاء غير المتعمّد، ذلك الخفاء الجميل، الذي فيه تتبخّتر الروح فرحاً بعزلتها، والتي هي غير مقصودة بالحاق الضرر بأحد، وبلا إعلان سيرة تلك العزلة أو إشهارها، لأنّ ذلك مفسدة لرحيق العزلة نفسها.

سمّه سلاماً أو أيّ شيء، يشبه السلام، بعيداً بالطبع عن تماحكات السياسة، أو سمّه «مركب نوح» لك وحدك، ولا تَسأل عن الطير، أو الأرزاق، وأنت حتّى بين حجرين، سمّه ابتعاداً بالروح عن الأذى قدر الإمكان كي لا نموت بالأذى، وحكيماً من تجنّب الأذى قدر الإمكان، بلا تخاذل أو مذلّة لأحد كان على وجه تلك الأرض.

عزلة ليست من صميم البطولة، عزلة لشجن الوحدة، وتأمّل ما يحدث بعيداً عن صخب الأحداث وهشاشتها المقصودة بفعل فاعل، ليلَ نهار، مثل مشاجرة لاعب في «مول» وعصابة من خلفه أو ذلك القرد الذي ابتلع نمساً، أو ذلك الصعيدي الذي قرص عمرو دياب من الخلف فناوله المطرب كفّاً، كما كان تاجر الدجاج، من الفيوم، كلّ صباح في الثلاثينيّات من القرن الماضي، يترك هدية إعجاب، أو عربون محبّة، قفص طيور أمام «فيلا» ليلى مراد، أو تلك الخطابات بالآلاف، التي كانت تصل شقّة زبيدة ثروت مثلاً، أيّ عزلة بلا أحزان مُعتّقة أو أيّ بكاء على أيّ لبن مسكوب.

أن تعيش هكذا، وفق ترتيبات روحك فقط، لا تعبيراً عن موقفك من الكون أو البشر، عزلة تتأمّل ما كان في أول الليل كتلك العصافير التي تفعل آخر مشاكسات لها في القلب من خضرة تلك الشجرة، التي هناك في لحظات الغروب، قبل أن تنصرف تماماً لسكينتها.

عزلة تكبّ فيها كلّ مسائلك في البحر كلّ ليلة، كي تعود إليها في الصباح، وأنت تتأمّل الصخب أمام محلّ فول وطعميّة، فتبتسم لنفسك في مرارة على إعلام المساء، والمشاريع، التي زاحمت العصافير في العدد والطيران للسماء بفرح، كما قالت الكاميرات من فوق نجيل أخضر غُرِسَ ليلاً.

عزلة أن تكون حقيقياً أمام مرآة روحك أو في غيابها، حتّى إن جاورتْ لصوصاً في صحراء، عزلة لماذا خلق الله الورد هكذا، وجعله جميلاً، وخاف عليه من الأذى، فأحاط غصونه بالشوك، كتلك الشمعة المسكينة التي ستذوب هي الأخرى باحتراق خيطها.

بالطبع، ستسأل عمّن يقطّع الأشجار ليلَ نهار، ويزرع مكان كلّ شجرة مائة شجرة من المانغو كي يأكل المساكين، وستسأل كيفَ امتلك «القاطع» ذلك القلب الخشن والكلام الذي يشبه الحنّاء، الكلام عن الشجر، هو كلام عن العزلة والخفاء، والغابة والصمت أيضاً، وهذا، لو تُركتَ أصلاً لصمتك، ما كلّ تلك الحرائق المصنوعة؟ حرائق كلام وحرائق أحداث وحرائق ملاعب كرة القدم؟ هل كلّ تلك الأشياء يعقو الخاطر، وهل ستُترَك أنت في العزلة تتنعّم وحدك ونحن نحترق، يا عمّ؟

بالطبع ستسأل عن الأهل والأحباب والأصحاب، فهل ما زال الأصحاب كما كانوا في جنّة عدن، لا تستطيع أن تختفي في غابة مليئة بالثعابين، ولن تتمكّن أبداً من الوصول لأيّ صاحب في جنّة عدن. كلّ شيء في الوجود شائك، وأنت من تختار، إن كانت لديك معجزة الاختيار، وإن كنت مثل هؤلاء المساكين كلّهم فانتظر الحكومة أن تنقّي الغابة من الثعابين، بعدما تتخلّص من مشكلة الكلاب الضالة. التماسيح أيضاً، تحب الهدوء، كي تصطاد فرائسها بسهولة، وقد تكون وهي هادئة تماماً في المياه تستمع لغنا، ما يأتيها من آخر الغابة، وعلّها تشمّ روائح العداوة من بعيد، وتتألّم أيضاً، كما يتألّم الناس وهم في انتظار أفراحهم وأرزاقهم في آخر الشهر. التمساح موظّف هو الآخر لدى شهواته، مثل سائر الناس، ولديه التزامات.

من يحرّر الآخر: نحن أم فلسطين؟

حلمي الأسمر

عبارة وردت، ولم تزل ترد، على ألسنة كثيرين، عربياً وعجماً: «نحن لا نحرّر فلسطين، بل فلسطين هي من تحرّرنا»، ومثلها ما قيل، ويقال، إنّ فلسطين ليست البلد العربي المحتلّ، بل هي البلد العربي الوحيد المحرّر، والبقية بلادٌ مُحتلّة (!). وفي هذا الشأن تحديداً، يحضُرنا اسم شخص يُدعى توماس مكولاي، عاش بين عامي 1800 و1859، وهو صاحب فكرة ما يسمّى «الاستعمار الداخلي» أو حسب تعبير بعضهم «الاستعمار الوطني»، وهي الفكرة التي أغنت الغزاة عن الجيوش والأساطيل، فكرة إيجاد جيل من الوكلاء التابعين يُعَنونهم عن الغزو بالاستعمار الداخلي، فيقول: «علينا أن نربّي طبقة تترجم ما نريد للملايين الذين نحكمهم، طبقةً من أشخاص هُنود الدم والبشرة، لكنّهم إنكليزيو الذوق، والأفكار، والتوجّه، والأخلاق والعقل».

يشتهر مكولاي بخطابه في البرلمان الإنكليزي في 2 فبراير/ شباط 1835، وفيه: «سافرتُ في الهند طولاً وعرضاً ولم أرَ شخصاً واحداً يتسوّل أو يسرق. وجدت هذا البلد ثرياً إلى درجة كبيرة، ويتمتّع أهله بقيم أخلاقية عالية، ودرجة عالية من الرقي، حتّى إنّي أرى أننا لن نهزمَ هذه الأمّة، إلّا بكسر عمودها الفقري، وهو تراثها الروحي والثقافي. ولذا، أقترح أن يأتي نظام تعليمي جديد ليحلّ محلّ النظام القديم، لأنّه لو بدأ الهنود يعتقدون أنّ كلّ ما هو أجنبي وإنكليزي جيّد واحسن من ما هو محلّي، فإنّهم سيفقدون احترامهم لأنفسهم وثقافتهم المحلّية، وسيصبحون ما نريدهم أن يكونوا؛ أمّة تامّة الهيمنة عليها تماماً». وقد استطاع ماكولي تطبيق فلسفته، فتحوّل التعليم في العام نفسه، في المدارس الهندية، نظاماً إنكليزياً خالصاً، وتمّ له تحطيم الذات وتغريبها وكسر عمودها الفقري، ودمج المجتمعات المُستهدَفة أو إلحاقها بالدولة المستعمِرة، ومن هنا، اشتدت القوى الكبرى إلى أنْ انضوت تحت لواء «جامعة دول عربية»، مهمّتها تفتيت الأمة وتغريبها، وفق ما خطط مكولاي نفسه الذي استنسخ أسلافه خطّطه في الهند، وأسقطوها على البلاد العربية والإسلامية.

أخرى من فلسطين، خرجت من التاريخ، الذي كان يراد لها أن تعيشه، إنّها غزة، خُوصت ومنع عنها كلّ شيء تقريباً، إلّا ما يريد الاحتلال أن يصل إليها، ولكنّها، في الواقع نفسه، كان لديها فرصة أن تعيد تكوين جيل خارج سياق «الاستعمار الداخلي»، بمناهجه وتربيته ونظامه العام، ومن المعروف أنّ بناء جيل جديد يستغرق خمسة عشر عاماً، وقد أتيح لغزّة أكثر من هذا الوقت بقليل لتبني الجيل الجديد، فكان جيلاً «تحرّر» من الاستعمار الداخلي، الذي خضعت له أجيال العرب، ولهذا كان «طوفان الأقصى» ليس لتحرير فلسطين فقط، بل لتحرير اليهود أنفسهم من صهيونيّتهم، والغرب من أكاذيبه الخاصّة بشأن ما يسمّى حقوق الإنسان، والقانون الدولي، والقانون الدولي الإنساني، وما حاول بيعها لنا بوصفها مُنتَجاً حضارياً.

فلسطين في الواقع حرّرت ملايين الأوروبيين من رواية الصهاينة القائمة على الأكاذيب والمُغلّفة، بالقدر الذي حرّرت الملايين أخرين من تراث أوروبي ضخم يقوم على تشويه صورة الإسلام والعرب، وكلّ ما يمتّ للحضارة الشرقية بصلة، والشواهد أكثر من أن تحصى، فثمّة الاف الشهادات التي ينشرها ناشطون ومشاهير في منصّات الإعلام الشعبي تظهر حقيقة الصراع في فلسطين، ومَنْ المُعتدي ومَنْ الضحيّة، بعد أن نجحت الدعاية الصهيونية ومَنْ يشايعها في قلب الصورة.

أعادت فلسطين تعريف الصراع برمّته، وحرّرت ملايين اليهود من «استعمارهم الداخلي»، هم أيضاً، فبدأوا يتبرّأون من الصهيونية، بوصفها هذا الاستعمار الذي حوّل صورة اليهودي النمطية السائدة على أنّه ضحية، قاتلاً متوحّشاً لا يشبع من قتل البشر، شبيهاً وشيْناً، وأطفالاً، ذكوراً ونساءً، وتدمير كلّ ما يمتّ إلى الحياة بصلة، شجراً وحجراً وبشراً، ولهذا تبرّأ مئات الآلاف، بل ملايين من اليهود من الصهيونية وأوطارها.

أمّا العرب، فلهم شأن آخر في عملية التحرير تلك، فقد حرّرت فلسطين العقل الجمعي العربي من التعلّق بأوهام القومية التي تكثّفت صورتها في أنظمة انضوت تحت لواء «جامعة دول عربية»، مهمّتها تفتيت الأمة وتغريبها، وفق ما خطط مكولاي نفسه الذي استنسخ أسلافه خطّطه في الهند، وأسقطوها على البلاد العربية والإسلامية.

(كاتب من الأردن)

حزب الله يُلحّ على استعجال النصر

دلال البزري

في خطابه أخيراً، لتأبين أحد قادة حزبه في حرب «الإسناد والمشاغلة» ضدّ إسرائيل، يخطو الأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله نحو نصر محتوم لحزبه، ترتفع نصر الله نحو نصر محتوم لحزبه، ترتفع حصة عن سابقاتها في أشهر هذه الحرب. لا يترك لإسرائيل بحراً ولا جوّاً ولا برّاً. لديه «بنك أهداف حقيقي» في إسرائيل، و«قدرة على الوصول إليها». تسلّم سلاحاً جديداً، صُنع بعضه الآخر، يمتلك «القدرة البشرية الكافية والمتحفّزة والجاهزة»، وقوةً «لم يسبق لها مثيل»، تجاوز عديدها المائة الف رجل. ومن شدّة حماسة شبابه للقتال تحت إمرته، «يعاني» من «الإخوان» الراغبين بالالتحاق بالجبهة، لا يعرف ماذا يفعل بهم... يمنعهم، أم يسمح لهم «وفقا لما تحتاجه (هذه) الجبهة»؟. (بالمناسبة: هل يمكن لدراسة لغوية أن تحلّل خُطب الحزب وأمينه العام عن الانتصارات التي تحقّقت على يده؟ كيف تنتهي أولى معاركه الكبرى مع إسرائيل منذ 18 عاماً، بإعلان «انتصاره التاريخي الإلهي الإستراتيجي»... ثمّ عقدين تخلّلتهما «انتصاراتٌ» أخرى لا تُحصى، تزدحم بالصفات، وتنتهي عند هذه اللحظة بنصرٍ آخر لم يعد معروفاً أيّ صفة يحمل؟).

بهذه الترسانة الجديدة، يوسّع نصر الله فجار الخائفين منه، ويضع بلداً جاراً على لائحة الأعداء: جزيرة قبرص. فقد وصلت إليه «معلومات» أنّ هذه الجزيرة ساحة مناورات، في مطاراتها ومناطقها، لـ«الحرب على لبنان»، فبهذا، في حال استمرّت في هذا المنوال، بأنه سيعاملها كأنّها «جزءٌ من الحرب»، أيْ كأنّها إسرائيل. نصر الله يتوّج نفسه في هذا الخطاب «إمبراطوراً لبنانياً صاعداً» (العبارة للصحافي أيمن جزيني). إمبراطوريته لا تعرف لنفسها حدوداً، مستنفرة على الدوام للحرب التي تتوسّع أو تتقلّص، تبعاً لـ«الموازين»، لها شروطها، كما في السلم الذي لا تحدّده. هذا في واجهة الواجهة، أي ما يحصل ويستحوذ على الأضواء كافة. أمّا ما بين الكواليس والخشبة، ثمّة كلام «توضيحي، تفسيري»، يطلقه منظّرون من بين رجال نصر الله؛ مؤتمر تعقده إحدى ذكاكين السياسة، اسمُه «التجدّد الوطني». عنوانه «من لبنان الساحة... إلى لبنان الوطن». تحضره شخصيات دينية وزمنية تتزعّم طوائفها. والمُنظّر الذي تتكلم عنه هو النائب عن حزب الله في البرلمان، علي فيّاض، وله كلمة تكاد تكون الخُلاصة الفكرية لخطاب نصر الله. في هذه الكلمة، يقدّرت فيّاض على الحضور «منهجية جديدة في مقاربة الأزمة اللبنانية»، وذلك «من أجل إعادة بناء تفاهمات وطنية». قوام هذه «المنهجية» أنّ الحضور يجب أن يعي تماماً أنّ «المنطقة أمام صعود جيوستراتيجي لمحور المقاومة»، بسبب «خوضها الحرب ضدّ إسرائيل»، والبديهي ساعتها أنّ الميل الطبيعي للأمور يقتضّي «أن يُعاد تشكيل توازنات جديدة في الشرق الأوسط لا خرائط». ثم يستعرض «هواجس الطوائف اللبنانية»، فيقلّل من قيمتها، وبعيدها إلى الماضي، قبل التحوّل الاستراتيجي. الهاجس السنّي والدرزي سخيفان مفوّتان. يبقى الهاجس المسيحي من «حماية الوجود المتضائل». والهاجس الشيعي، هو الأسمى، «لأنّه يقوم على حماية الوجود في ظلّ المخاطر الإسرائيلية». بناء عليه، يقترح فيّاض «حلاً للأزمة اللبنانية»، يقوم على بنود. الأول، أنّه لم يعد ممكناً بعد اليوم البحث في سلاح الحزب، الذي صار أبدياً، وأنّ العلاقة التي أقامها الحزب طوال السنوات الماضية مع الدبلوماسية «تصلح نموذجاً للاستلهام». علاقة يصفها بـ«التكاملية»، إذ يعتقد أنّ «الدور التكاملي لا الاحتوائي في سلاح الحزب، أو بتفسيره «الذكي» لبعض خطب نصر الله، الذي يشدد من المؤسّسات الدولية أموالاً نهبها بالشراكة أو بالتواطؤ مع الحزب، ها هو، المرّة هذه، وأمام تقلّص دوره أو خدماته للحزب، يقوم بفعل يوصف بـ«المقاوم». فيستقبل الفنّان المصري عمرو دياب، يتصوّر معه، يشجّعه، في رسالة يريد لها أن تكون واجبه، أو مساهمته «الشجاعة»، في هذه اللحظات التاريخية من عمر جمهوريتنا. نجيب ميقاتي وعمرو دياب، مع جمهور الأخير في وسط البلد، كانا مادّة تحليل صحافي بأنّ حركة ميقاتي «هدفها القول باستمرار: يقرّر الحزب أن يخرق الحدود البرّية؛ أن يخوض حرباً على السوريين؛ أن يعطّل تحقيقات انفجار المرفأ؛ أن يغطّي الإجرام والتهريب والفساد وسرقة الودائع؛ أن ينفرد بإعلان الحرب، كما الآن، والحكومة بين رضا أعضائها واعتزازهم بأنّهم حكومة، وبين الحرج من الداخل والخارج، تُلملم نفسها، تصمت، تُمرّر، تعلّق، تنكّس رأسها، تتلقّى عن الحزب لكمات المجتمع الدولي والدبلوماسي، تنتفض قليلاً لماء وجهها، تخوض معه كباشات لطيفة... وعندما لا تعجبه واحدة من إشارات الإمتعاض أو الانزعاج، يرفع الحزب شعار «السلطة الحاكمة»، لا الانشغال بمصالح الشعب وقضيّته، وبضرورة وحدته لمواجهة المخاطر، التي يشكّلها الاحتلال بجرائمه المُستمرّة. إنّ استفراد «حماس» في حكم قطاع غزّة ليس مسؤوليتها وحدها، فالسلطة التحتية المسؤولية، بالقدر ذاته، عن هذه الأوضاع الفلسطينية المزرية، التي سادت واستمرّت بعد الانقسام، بذلك، تتحمّل التداعيات السلبية لهذا الانقسام في الساحة الفلسطينية، التي كان بالإمكان تجاوزها بدل الشلّل الذي شهدته بعد الانقسام، والتصدّي بشكل أفضل للتحدّيات الفلسطينية، في حال كانت السلطة الفلسطينية موحّدة. هذا من جانب مسؤولية السلطة عما أسفر عنه الانقسام الفلسطيني، وصولاً إلى «طوفان الأقصى». وحتّى بعد الحرب الإسرائيلية على قطاع غزّة، كان يمكن للسلطة/ منظّمة التحرير أن تقوم بدورها في حماية الشعب الفلسطيني في غزّة من الوحشية الإسرائيلية، بالعمل على إيجاد شبكة أمان لإخراج الوضع الفلسطيني من هذا الوضع الكارثي.

(كاتب فلسطيني في أستوكهولم)

> برسانة جديدة من الأسلحة، يوسّع حسن نصر الله فجار الخائفين منه، ويضع بلداً جاراً على لائحة الأعداء: جزيرة قبرص

كاريكاتير — عماد حجاج

في مسؤولية السلطة الفلسطينية عن «طوفان الأقصى»

سمير الزبن

عندما تدّعي أنّك تمثّل الشعب الفلسطيني، وانت من قدّت نضاله اكثر من نصف قرن، لا تستطيع أن تتعامل مع قضاياه المُلحّة والجرائم التي ترتكب في حقّه وكأنّك متضامنٌ خارجي. تنتمي إلى بلد في أميركا اللاتينية، حتّى إنّ هذه البلدان المُتضامنة من الخارج قامت باكثر مما قُمْتَ به، مثلما فعلت جنوب أفريقيا برفع دعوى لمحاسبة إسرائيل على جرائمها في حقّ الفلسطينيين أمام محكمة العدل الدولية. ولا تستطيع القول إنّي لست مسؤولاً عمّا يجري، وبجري، من أحداث فارقة وانعطافية في الساحة الفلسطينية، كان تقول، إنّي لم أتّخذ قرار بدء الحرب التي تجري في غزّة وأنا لست شريكاً في القرار الذي انفردت به حركة حماس، وبذلك، لست مسؤولاً عن نتائج الحدث وما جرّه، ويجرّه، من الام ويوبلات هائلة على أهالي القطاع. هكذا تتزعّم طوائفها. والمُنظّر الذي تتكلم عنه هو النائب عن حزب الله في البرلمان، علي فيّاض، وله كلمة تكاد تكون الخُلاصة الفكرية لخطاب نصر الله. في هذه الكلمة، يقدّرت فيّاض على الحضور «منهجية جديدة في مقاربة الأزمة اللبنانية»، وذلك «من أجل إعادة بناء تفاهمات وطنية». قوام هذه «المنهجية» أنّ الحضور يجب أن يعي تماماً أنّ «المنطقة أمام صعود جيوستراتيجي لمحور المقاومة»، بسبب «خوضها الحرب ضدّ إسرائيل»، والبديهي ساعتها أنّ الميل الطبيعي للأمور يقتضّي «أن يُعاد تشكيل توازنات جديدة في الشرق الأوسط لا خرائط». ثم يستعرض «هواجس الطوائف اللبنانية»، فيقلّل من قيمتها، وبعيدها إلى الماضي، قبل التحوّل الاستراتيجي. الهاجس السنّي والدرزي سخيفان مفوّتان. يبقى الهاجس المسيحي من «حماية الوجود المتضائل». والهاجس الشيعي، هو الأسمى، «لأنّه يقوم على حماية الوجود في ظلّ المخاطر الإسرائيلية». بناء عليه، يقترح فيّاض «حلاً للأزمة اللبنانية»، يقوم على بنود. الأول، أنّه لم يعد ممكناً بعد اليوم البحث في سلاح الحزب، الذي صار أبدياً، وأنّ العلاقة التي أقامها الحزب طوال السنوات الماضية مع الدبلوماسية «تصلح نموذجاً للاستلهام». علاقة يصفها بـ«التكاملية»، إذ يعتقد أنّ «الدور التكاملي لا الاحتوائي في سلاح الحزب، أو بتفسيره «الذكي» لبعض خطب نصر الله، الذي يشدد من المؤسّسات الدولية أموالاً نهبها بالشراكة أو بالتواطؤ مع الحزب، ها هو، المرّة هذه، وأمام تقلّص دوره أو خدماته للحزب، يقوم بفعل يوصف بـ«المقاوم». فيستقبل الفنّان المصري عمرو دياب، يتصوّر معه، يشجّعه، في رسالة يريد لها أن تكون واجبه، أو مساهمته «الشجاعة»، في هذه اللحظات التاريخية من عمر جمهوريتنا. نجيب ميقاتي وعمرو دياب، مع جمهور الأخير في وسط البلد، كانا مادّة تحليل صحافي بأنّ حركة ميقاتي «هدفها القول

> لا يمكن لتشكيل سياسيّ مركزيّ في مرحلة تحرّر وطنيّ أن ينأى بنفسه عن حدث مركزي

الانشغال بمصالح الشعب وقضيّته، وبضرورة وحدته لمواجهة المخاطر، التي يشكّلها الاحتلال بجرائمه المُستمرّة. إنّ ليس مسؤوليتها وحدها، فالسلطة التحتية المسؤولية، بالقدر ذاته، عن هذه الأوضاع الفلسطينية المزرية، التي سادت واستمرّت بعد الانقسام، بذلك، تتحمّل التداعيات السلبية لهذا الانقسام في الساحة الفلسطينية، التي كان بالإمكان تجاوزها بدل الشلّل الذي شهدته بعد الانقسام، والتصدّي بشكل أفضل للتحدّيات الفلسطينية، في حال كانت السلطة الفلسطينية موحّدة. هذا من جانب مسؤولية السلطة عما أسفر عنه الانقسام الفلسطيني، وصولاً إلى «طوفان الأقصى». وحتّى بعد الحرب الإسرائيلية على قطاع غزّة، كان يمكن للسلطة/ منظّمة التحرير أن تقوم بدورها في حماية الشعب الفلسطيني في غزّة من الوحشية الإسرائيلية، بالعمل على إيجاد شبكة أمان لإخراج الوضع الفلسطيني من هذا الوضع الكارثي.

(كاتب فلسطيني في أستوكهولم)

هل يسقط الصومال مجدّداً؟

الشافعي ابتدون

كثر الحديث أخيراً عن انسحاب عسكري لبعثة الاتحاد الأفريقية الانتقالية (أتمس) من جيوب عسكرية واستراتيجية في جنوب الصومال ووسطه، والتي يصل قوامها إلى نحو 15 ألف جندي عسكري بعد سحب الآف الجنود منذ مطلع يناير/ كانون الثاني الماضي، ومن المقرّر سحب أربعة آلاف جندي أفريقي في غضون أربعة أشهر (بين يونيو/ حزيران وسبتمبر/ أيلول المقبلَين)، وتسليم ملفّ الأمن للقوات الصومالية، وردع هجمات حركة الشباب (موالية لتنظيم القاعدة) التي خسرت مدناً عديدة، تحديداً في أقاليم جلمدغ وهيران وشبيلي الوسطى، منذ شنّ الجيش الصومالي عمليات عسكرية واسعة في نهاية عام 2022، لكنّ توقّف عمليات الجيش ضدّ الحركة أخيراً أعطاها زخماً وأكسير حياة جديدَين لتشنّ هجمات مميتة ضدّ أهداف عسكرية وسط البلاد.

جاءت نتائج الحرب، التي أعلنتها الحكومة الفيدرالية، مخيّبة، وكانت عكس التوقّعات بالحاق هزيمة عسكرية بحركة الشباب الإسلامي في غضون عام، وذلك حسب تصريحات الرئيس الصومالي في أكثر من مناسبة، لكنّ الحركة، التي تستخدم أسلوب حرب العصابات، تمكّنت من تبديد هذه الإعلانات المتكرّرة على مسامع الصوماليين في الداخل والخارج، وانتهت ملاحتها بحرب عشوائية بخوضها الجيش الصومالي، وتنتهي أحياناً بجولات عسكرية خاطفة، ثمّ تراجع جيش الصومال وانسحاب قواعده ومقارّه العسكرية، تكتيك عسكري تمارسه الجماعات المسلّحة أو العصابات الثائرة لاستنزاف الجيش الذي يفوقها بالعدد والعتاد، فإذا استمرّت هذه الحالة، فإنّ تراجع الجيش الصومالي من الجبهات وارد، ويُحتمل أن تعود تلك المناطق إلى قبضة «الشباب» مجدّداً.

ثمّة أسئلة حائرة تلوكها الألسنة، ما هي مآلات الوضع الأمني في الصومال، بعد انسحاب البعثة العسكرية الأفريقية من القواعد القريبة من العاصمة مقديشو، حيث انسحبت تلك القوات الأفريقية من مقارّ عسكرية على بعد 60 و90 كيلومتراً من مقديشو، وسلّمت ملفّ الأمن للقوات الصومالية. ويطرح استمرار مسلسل الانسحابات العسكرية للجنود الأفارقة من دون إجراء تقييم عسكري بشأن مدى قدرة الجيش الصومالي على تماسكه داخلياً لضبط أمن تلك القواعد والمناطق التي يسيطر عليها، بطرح الأحرار عودة هذه المناطق مجدّداً إلى يد حركة الشباب أو المليشيات القبلية، ما لم تتمكّن الحكومة الفيدرالية من وضع استراتيجية عسكرية وإدارية للحفاظ على أمن تلك المناطق، كما أنّ إمكانات العودة إلى الأحراش والمناطق مرّة أخرى، بالنسبة إلى الجيش غير متوفّرة بالقدر الذي تضطع فيه الجماعات المسلحة الخارجة عن القانون، سواء الموالية لتنظيمات فكرية أو عشائرية، على استعادة المناطق التي تخسرها.

ليس خافياً أنّ قدرة الجيش الصومالي على استلام ملفّ الأمن كاملاً تعوقه عقباتٌ وتحدّياتٌ كثيرة، فأولى تلك العقبات تتمثّل في معضلة الولاءات والانقسامات والمناطقية، التي هي اللغة السائدة في «كانتونات» المنظومة العسكرية، بالإضافة إلى أنّ غياب الدعم اللوجستي والفنّي هو القشّة التي تقصم ظهر البعير، وتجعل مجهوده العسكري وتضحياته الجسام بلا طحين، إلى جانب توسّع نطاق العمليات في أقاليم عدة تنتشر فيها حركة الشباب، ما يشتّت جهود الجيش، ويُضعف قدراته العسكرية، نتيجة انعدام التنسيق الميداني وتوفّر استراتيجية عسكرية لإدارة الحرب في معركة يراد لها الخلاص من أزمات الصومال الأمنية الطويلة.

الحرب التي يخوضها الصومال ضدّ التنظيمات المسلحة ذات النزعة الأيديولوجية، ستكون طويلة وتأخذ فترة لا يمكن التكهّن بملاتها، بعد تسريبات من مسؤولين عسكريين أميركيين عزّزت فرضية تنامي نفوذ تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) في ولاية بونت لاند الفيدرالية، مع تفنيذ إدارة هذه الولاية المزاعم الأميركية بحجّة عدم توفّر دلائل تثبت خطورة انتشار هذا التنظيم في المنطقة الشمالية الشرقية من الصومال. والتي هدّدت التسريبات الأميركية بعد أنباء عن صعود للتنظيم وانتشاره في مناطق جبلية (جبال علي مسكات) على حساب مسلّحي حركة الشباب التي خسرت بعضاً من نفوذها نتيجة اشتداد المعارك في حرب مشتعلة أمام «الشباب»، التي لم تقدر على الصمود أمام حرب غير متكافئة تخوضها ضدّ الجيش الصومالي، وتنظيم الدولة الإسلامية، دفعة واحدة. ولا تزال المعارك في ولاية بونت لاند بين التنظيمين المسلّحَين سجالاً مفتوحاً، لا غالب ولا مغلوب فيها، لكنّ ولاء بعض القبائل في المنطقة لصالح أمير «داعش» عبد القادر مؤمن، يعطيه الأفضلية والتفوّق العسكري الميداني لمواجهة مسلّحي الحركة، والمؤكّد أنّ صراع التنظيمين في مساحات جبلية وعرة يختزل الزمن والمسافات مستقبلاً إذا أرادت بونتلاند القضاء على منتصر مرهق بدنياً وعسكرياً.

لم تتحقّق الرغبة، التي روّجها أنصار الرئيس الصومالي، حسن شيخ محمود، في تحقيق انتصار عسكري سريع ضدّ حركة الشباب، وأصبحت خطابات شيخ محمود لا وزن لها في ميزان المعارك وترجيح كفّة القتال لصالحه، بل ازدادت غرابة في تناقض مضامينها بين الوعيد تارّة والحوار تارّة أخرى، ما يعكس وجود ضبابية في الإستراتيجية المُتّبعة لحرب معلنة ضدّ «الشباب»، توقّفت جزئياً راهناً، وقضت على الأقلّ على نفوذ الحركة في الأقاليم الوسطى إثر تحرير مدن استراتيجية، وانتهت فترة الوعود، بعد مرور عامَين، والجيش الصومالي منهك وخسر مئات من أفراده وعشرات من ضبّاطه وجنرالاته، وتبدأ مرحلة الفوضى السياسية، وهي مشهد اعتاده الصوماليون بإثارة الاضطرابات السياسية في البرلمان والحكومة، حتّى لا يقدر الرئيس الحاكم بعد مرور عامَين من حكمه على خوض انتخابات رئاسية جديدة، تضمن له فوزاً سهلاً، ما يبدّد كلّ الجهود الأمنية والعسكرية، ويعيد الأوضاع مجدّداً إلى مربع الصفر.

تفصلنا أشهر قليلة عن الزمن الموعود لإجلاء القوات الأفريقية من البلاد، أواخر ديسمبر/ كانون الأول المُقبل، وتوحي المؤشّرات الميدانية أنّ الاستعدادات العسكرية للحكومة الفيدرالية غير كافية، وربّما يتطلّب الأمر تشكيل بعثة أمنية أفريقية بديلة (قوامها 12 ألف جندي) لحماية مقارّ الحكومة الفيدرالية ومرافقها في العاصمة مقديشو، لكنّ هذا لا يعني أنّ خطر المواجهات المسلّحة وتهديدات حركة الشباب قد تزول، والخشية تكمن في إمكانية أن تتحوّل مقديشو ساحة معارك جديدة بسبب القلاقل السياسية والفوضى الأمنية، نتيجة عدم توافق الأطراف السياسية على آخر تعديلات دستورية، أقرّها البرلمان في مارس/ آذار الماضي، هذا، إلى جانب وجود احتمالات انفراط العقد بين الحكومة المركزية والولايات الفيدرالية، وتحديداً ولاية جنوب غرب الصومال وجوبالاند، اللتين تشكّلان الثقل العسكري والإداري للحراك الشباب.

لا يمكن توقّع حجم الأضرار والانعكاسات الأمنية الناجمة عن انسحاب القوات الأفريقية بالنسبة إلى الصومال، وليست هذه الخشية، التي يبديها بعض المراقبين، نابعة عن فترة تجريبية قصيرة تتمكّن فيها القوات الصومالية من الحفاظ على أمن المقارّ والمرافق الحساسة. الخوف يكمن، في الأمد الطويل، بشأن قدرة تلك القوّات المحلّية على تثبيت أمن تلك المقارّ ومن دون الانخراط أو التأثر بمجريات السياسة وتقلباتها، وما شهده الصومال في عام 2021، في أعقاب تمديد غير شرعي لسلطة الرئيس الصومالي السابق محمد عبد الله فرماجو من البرلمان الفيدرالي، قبول برفض سياسي وعصيان عسكري لوحدات من القوات الصومالية، خضوعاً لرغبة سياسيين وقيادات عشائر، خير دليل على ذلك، فإلى أيّ مدىً يمكن الوثوق بجيش ولاؤه المطلق للعشيرة أو لقيادات سياسية في حفظ الأمن والاستقرار؟ فإذا لم تعقب عملية الانسحاب الأفريقي من الصومال استراتيجية أمنية وعسكرية للجيش الصومالي تبدأ بمكافحة الفساد والمحسوبية وتنظيم صفوفه، وتشكيل بنيته الهُويّاتية والعقائدية، فإنّ خطر سقوط الصومال أمنياً هو الراجح، في ظلّ نزاع إقليمي بين الصومال وإثيوبيا، التي غرفت بيدها الطولى في تأزيم أوضاع هذا القطر العربي منذ عقود.

(إعلامي صومالي)

> الخشية من إمكانية أن تتحوّل مقديشو ساحةَ معارك جديدة بسبب الفوضى الأمنية، نتيجة عدم توافق الأطراف السياسية على آخر تعديلات دستورية

سمسار الدم على معبر رفح

زياد بركات

كتب أحد الغزّيين، في ديسمبر/ كانون الأول الماضي، على حسابه في «إكس» عن اضطرار عائلة غزّية من 11 فرداً لدفع 50 ألف دولار للسلطات المصرية لتؤمّن خروجهم عبر معبر رفح. وبحسب المدوّن نفسه، وصلت الأسعار، بعد ذلك، إلى سبعة آلاف دولار للشخص الواحد. ونقل (م. ح)، في مطلع يناير/ كانون الثاني الماضي، عن صديق غزّي قوله إنّ المصريين (ويقصد السلطات)، طلبوا عشرة آلاف دولار لتأمين خروج والدته إلى مصر للعلاج.

القصّتان أعلاه، ليستا سوى نزر قليل جداً من آلاف القصص التي كتبها غزّيون عن تجاربهم المريرة للخروج من معبر رفح، وهناك مئات من القصص الأخرى عن الإهانات والتعقيدات التي تعرّض لها الغزّيون بعد وصولهم إلى مصر، وما فعلوا ذلك على سبيل السياحة، بل للعلاج أو للنجاة بحيواتهم وذويهم.

لكن، من أين يأتي بعض الغزّيين بالمال لتأمين خروجهم إلى مصر؟ ليس الغزّيون متسولين بالمناسبة، فقد كان تجارهم قبل عام 1948، مثل باقي مدن الساحل الفلسطيني، تصل إلى دول ساحل البحر الأبيض المتوسّط الأوروبية، وهم، قبل هذا وبعده، من الشعوب العاملة والمكافحة، وفيهم الغني والفقير، لكنّهم يتساوون أمام مدحلة القتل والإبادة، ما يدفع بعضهم إلى بيع أصوله العائلية من ذهب الزوجات، أو الاستدانة عبر الحدود، لتأمين تكلفة الخروج، مُجرّد الخروج، والوصول إلى مصر، التي كانت سلطاتها قبل توقيع اتفاقية كامب ديفيد (1078)، تدفع رواتب شهرية للطلاب الغزّيين في جامعاتها. باستثناء مواطني دول الخليج، فإنّ العربي اليسور وليس الثري، هو الذي يدّخر بضعة آلاف من الدولارات لشراء سيارة أو لتأمين دراسة أبنائه، فالمال لا نجده في الطرقات في دول المنطقة أو غيرها، فما بالك بشعبٍ محاصر، وليس لديه مُتنفّس سوى معبر لا يزيد عرضه عن 20 متراً.

هناك من لا يأبه بهذا، وهؤلاء، يديرون تجارة الدم على معبر رفح، ويتحدّثون عن تأمين خدمات خروج مميّزة (VIP) للغزّيين، تشمل التنقّل بسيارات «بي إم دبليو» فاخرة، ما يقتضي دفع الغزّيين لهذا المبلغ الكبير. ويزيدون بالقول إنّ المسألة عرض وطلب في نهاية المطاف، لتبرير زيادة المبالغ التي يطلبونها من الغزّيين (اقرأ كلام إبراهيم العرجاني في تحقيق «نيويورك تايمز» عن الموضوع: 20 يونيو/ حزيران الجاري). ليس هذا صحيحاً، قبل أن يكون شائناً ولا يليق بمصر ولا شعبها، وللأسف، من كان يتقاضى مالاً من الغزّيات الصابرات مقابل استخدام الكراتين التي كنّ يجلسن عليها في معبر رفح في عهد الرئيس الراحل حسني مبارك، أصبح حالياً شركة كبرى، لها مجلس إدارة وجيش من الموظّفين الذين يقومون بشيء واحد فقط، ابتزاز الغزّيين، وكسرهم ن

صراعات الشرق الأوسط المعقّدة والسلام المستحيل

برهان غليون

صورة قاسم سليماني في اعتصام مناهض لإسرائيل وأميركا في طهران، إبريل 2024 (حسين بريس/فرانس برس)

دشّن انهيار السلطنة العثمانية في عشرينيّات القرن الماضي حقبةً جديدةً، وأطلق صراعاتٍ تكاد لا تنتهي في عموم المشرق العربي، غالباً ما تختلط فيها النزاعات الداخلية على السلطة بالصراعات الدولية. لكنْ هناك دائماً، داخل هذه الصراعات مُتعدّدة الأطراف والأبعاد، والمستمرّة منذ قرن ونيّف، صراعٌ محوريٌّ تدور حوله وتتهيكل به النزاعات الأخرى. بدأت هذه الحقبة بالصراع بين الدول الأوروبية، فرنسا وبريطانيا خاصّة، بتقاسم أشلاء السلطنة ورسم حدود دولها كما لا تزال قائمة. أعقبه الصراع بين الحركات الاستقلالية وسلطات الوصاية الاستعمارية، وانتهى بصراع محوريّ شقّ العالم إلى قطبين؛ شرقيٍّ وغربيّ، وأعاد تشكيل الخريطة السياسية والجيوسياسية داخل الدول التابعة، وفيما بينها، فانقسم العالم العربي، كبقيّة مناطق العالم، بين نظم اشتراكية تابعة للمعسكر الشرقي، وأخرى مرتبطة بالغرب ومستندة إليه في حماية حدودها وتنمية اقتصاداتها.

لكنّ انهيار الاتحاد السوفييتي في الحرب الباردة دشّن حقبة فريدة سيطرت فيها الولايات المتّحدة على القرار وأجندة السياسة الدوليّين، استغلّتها واشنطن لتحقيق مكاسب متعدّدة الأشكال على حساب جميع الدول والشعوب الأخرى، وفرضت نفسها قطباً أوحدَ يملك حرّية التصرّف الكامل في شؤون العالم، في المستوى الكلّي، وفي مستوى الأقاليم، بل الدول والجماعات القبلية والأحزاب السياسية. لكنّ «القيادة الأميركية للعالم»، كما لم يكفّ عن التذكير بذاك الشعار القادة الأميركيون، بذريعة الحفاظ على السلام والاستقرار العالميّين، لم تكن تعني في الواقع سوى إعطاء الأسبقية للمصالح الأميركية الاستراتيجية والنفعية على حساب دول العالم قاطبة، بما في ذلك الحلفاء الأوروبيين.

كانت نتائج هذه القيادة كارثية في الصعيدَين، الإقليمي والعالمي. فقد لعبت السيطرة الأحادية التي تمتّعت بها واشنطن بعقل الرؤساء الأميركيين، وأدّى استخدام القوة المفرطة في التدخّلات العسكرية والسياسية والاقتصادية، التي أصبحت أسهل وسيلة للضغط على الحكومات والدول الرافضة للتبعية، إلى تدمير التوازنات الدولية، وزعزعة استقرار المجتمعات، وتفكيك الدول، وتقويض سلطة القانون الدولي، كما أظهرت ذلك حالات العراق وأفغانستان، وفلسطين التي تحوّلت فيها الحرب الاستيطانية حربَ إبادة جماعية في غزّة.

وبدل أن تساهم الحرب ضدّ الإرهاب، التي فرضها الأميركيون على دول العالم لإكراهها على الالتحاق بواشنطن، والقبول بالعمل على أجندتها، في تعزيز السلام والاستقرار في الشرق الأوسط عملت على توسيع نطاق انتشاره في العالم أجمع، وعمّقت الشكّ بالقيادة الأميركية، وبالهدف من تدخّلاتها العشوائية. وفي سياق التآكل المتزايد لشرعية القيادة الأميركية العالمية وتصعيد الاعتراضات على سياساتها التدخّلية، بما في ذلك لدى الحلفاء الأوروبيين، تطوّرت في مختلف مناطق العالم، ولدى الدول الصناعية الصاعدة خاصّة، آمال التحرّر من القبضة الأميركية القاسية، وتشكيل تجمّعات تحمي مصالحها مثل تجمع «بريكس» واتفاقية شنغهاي، وغيرها، في الوقت الذي دخلت فيه العلاقات الأميركية الروسية والصينية في حالة من التوتّر، إن لم يكن الحرب، كما في أوكرانيا، وإعادة مناخات الحرب الباردة بشكل أكثر حدّةً وخطورةً.

وفي منطقة الشرق الأوسط، التي تقدّم الدليل الأبرز على إفلاس السياسات الأميركية، التي أنتجت من الكوارث أضعاف ما حلّت من المشكلات، لم يعزّز تدمير العراق وتحييده الاستقرار الذي ادّعته واشنطن في هذه المنطقة الحيوية. بالعكس، لقد فتح نزع الصمّام العراقي أبواب الجحيم على الدول العربية والخليجية بإتاحته لطهران الخروج من معزلها التاريخي، والانديّاح في مسرح الشرق الأوسط، بكلّ ما تملكه من قوّة. لقد قُدّم لها المشرق العربي على طبق من ذهب تحرث فيه كما تشاء، لا من أجل فكّ الحصار المفروض عليها فحسب، وإنّما من أجل أن تفرض نفسها شريكاً لواشنطن في تقاسم ثروات منطقة كانت حكراً شبه كامل عليها.

ومنذ عقدين، أصبح المشرق العربي ضحيّة الصراع الإيراني الأميركي، وفقد أيّ إرادة مستقلّة أو أجندة سياسية واستراتيجية. وفي هذا الصراع، تستخدم طهران استراتيجية النَفَس الطويل والحرب غير المباشرة وغير النظامية، التي تعتمد على استغلال موارد وتجنيد أبناء الشعوب، التي زعزع الأميركيون أنفسهم، وبمشاركة حلفائهم المفضّلين في تل أبيب، استقرارها. فلا تزال طهران تخوض، منذ بداية القرن، من خلال وكلائها المحلّيين، من عراقيين ولبنانيين ويمنيين وسوريين وأفغان وباكستانيين، وغيرهم، حرباً واسعة النطاق وغير مسبوقة، هدفها زرع الفوضى وتقويض أركان الدول الضعيفة، وتفكيك مجتمعاتها، وابتلاعها، مستفيدة من الفراغ الكبير الذي أحدثه تحييد مصر وتدمير العراق وإلحاق سورية بحكم أسرة محلّية عميلة ومتوحّشة. ولا تزال المنطقة المشرقية تعيش على وقع الصراع بين طهران ومن ورائها الصين وروسيا في الظلّ، من جهة، والولايات المتّحدة وحربتها الإقليمية إسرائيل، من جهة أخرى، من أجل إعادة تشكيل الشرق الأوسط، وفرض إرادة كلّ منهما على شعوبه، والتحكّم بموارده ومصيره.

تعتقد إيران، وتعمل على أساس أنّها هي القوة الأكبر، الجيوسياسية والثقافية والتقنية، في المنطقة، ومن حقّها أن تكون صاحبة الدور الأول في صوغ أجندتها السياسية، في مقابل، أو بموازاة، أو بالاشتراك مع الولايات المتّحدة والغرب، وأن يكون لها النفوذ الذي تحتاجه وتستحقّه، ويعكس قوّتها الحقيقية الظاهرة والكامنة. والرهان الأكبر في هذا الصراع هو السيطرة على منطقة الخليج العربي التي لا تضمّ أكبر ثروة مركّزة في منطقة صغيرة وهشّة في العالم، منجمية ومالية، فحسب، وإنّما موقعاً جيوستراتيجياً استثنائياً أيضاً.

فبخلاف ما يبدو للوهلة الأولى، ليس الصراع الجاري في نظر طهران بين العرب والإيرانيين، وإنّما بين طهران، التي تعتقد أنّ المشرق مجالها الحيوي الطبيعي وجزء من متاعها، من جهة، والولايات المتّحدة ومن ورائها الغرب حليفها من جهة ثانية. وهي ترى في نفسها الوريثة الشرعية لحركات التحرّر والثورات ضدّ الهيمنة الأجنبية، وأنّ من واجبها ودورها قيادة شعوب المنطقة للتحرّر من هذه الهيمنة الأميركية، وليس هناك في المنطقة من يمكن أن ينافسها أو يستحقّ أن يكون ندّاً لها، لا تركيا ولا السعودية ولا مصر ولا سورية ولا العراق، وهي في المقابل الندّ الوحيد في الشرق لأميركا، التي تحول دون احتلال موقعها الطبيعي، الذي يندرها له مركزها الديني، ومكانتها الثقافية، وإنجازاتها العسكرية والتقنية. أمّا إسرائيل، فهي ليست خصماً إلّا بمقدار ما هي أداة في يد الهيمنة الأميركية. الخصم الحقيقي هو واشنطن، وإذا احتاج الأمر، فلا شيء يمنع طهران من أن تناور مع تل أبيب، وتتعاون معها، إذا اقتضت الضرورة، كما فعلت أثناء الحرب الإيرانية العراقية، لتحقيق أجندتها في المنطقة. وبالمثل، ليست السيطرة على العراق وسورية ولبنان واليمن مهمّة وأساسية إلّا بمقدار ما تمهّد الطريق للسيطرة على الجزيرة العربية، التي تجتمع فيها مصادر الشرعية الرمزية الدينية، والثروة الاستثنائية، والهشاشة أو الفراغ الاستراتيجي.

هذا يعني، أيضاً، أنّ طهران لا ترى في الدول العربية منافساً أو خصماً، ولا طرفاً في الصراع الدائر، إنّما طريدة سائبة، يتنازع الجميع عليها، وهي الأولى بها جغرافيا وتاريخياً ودينياً، لا الغرب ولا روسيا، ولا الصين أيضاً. وكما أنّها لا ترى في النخب العربية الحاكمة ندّاً يستحقّ الاعتبار، وإنّما عملاء للغرب، وأدوات في خدمته، فهي لا تنظر إلى سكّانها شعوباً لها مطالب ومصالح وتطلّعات وأجندات تنموية أو سياسية يجب احترامها أو أخذها بالاعتبار، في الحدّ الأدنى، وإنّما تنظر إليها بوصفها أدواتٍ لخدمة المشروع الإسلامي/ الإيراني، أي الإمبراطوري. وليس من مهمّاتها، اليوم، تحقيق التنمية أو بناء الديمقراطية أو الحديث في حقوق الإنسان، إنّما التمرّد على حكوماتها ودولها، والالتحاق بالمليشيات الإيرانية، والانخراط معها لإلحاق الهزيمة المُنكَرة بالغرب. وينطبق هذا على فلسطين، التي لا ترى طهران في قضيّتها سوى تفصيل صغير تستفيد من تبنّيه لخدمة قضيتها الكبرى. وقد حان الوقت، مع أفول الهيمنة الغربية، كي تستعيد مكانتها، وتؤكّد دورها، بوصفها الوريث الشرعي للإمبراطورية الإسلامية التاريخية، التي أخفقت في تجديدها، في العقود الماضية، الحركات القومية العربية والتركية. هذا هو التفكير الذي يقود سياستها الإقليمية والدولية، وما يفسّر الاستثمار المركزي في الصناعات والتنظيمات العسكرية والقتالية، بما في ذلك مشروع الصناعة النووية، فهي الوحيدة التي تستطيع أن تحقّق، اليوم، الحلم العظيم، الذي أخفقت في إنجازه القومية العربية، وتخلّت عنه الحركة الكمالية التركية، وهو تحرير الشرق من التبعية التاريخية للغرب، وتحويل المنطقة قوّةً مستقلةً صاحبةَ قرارها، وشريكاً ندّاً في صياغة القرارات والسياسة الدولية. لذلك، لا ترى طهران نفسها أيضاً، أقلّ أو أدنى مرتبة استراتيجية من الصين أو روسيا. وهي تتنازع معهما أيضاً، في إطار التحالف التكتيكي، الذي تقيمه معهما ضدّ الهيمنة الغربية. وفي هذا الصراع تمتشق طهران ورقتَين حاسمتَين للشرعية في تجسيد وقيادة هذا المركز الإمبراطوري في المشرق مقابل المراكز الأخرى العالمية، هما أولاً، الإسلام، وما يمثّله من مصدر عقائدي وإلهامي، ومن إرث حضاري، وكتلة بشرية كبرى تنشد الاعتراف والاحترام والمشاركة في صناعة المصائر العالمية للبشرية. ثانياً، القضية الفلسطينية، التي تجسّد صراع الشعوب ضدّ آخر قلاع السيطرة الاستعمارية الاستيطانية الغربية، وما تمثّله من قضية إنسانية عادلة، وتحدّياً مصيرياً استراتيجيا لشعوب المنطقة، وقبلة دينية متعدّدة الأطراف. ... لم تولد إيران، التوسّعية والمتمرّدة على الغرب وشعوب المنطقة، من عدم. لقد صعدت على أنقاض الخراب الذي خلّفه الاجتياح الأميركي الإسرائيلي للشرق الأوسط العربي في مدى عقود. ولم يتغذّ وحش التغوّل الخامنئي من الفراغ، وإنّما على ما تركه التغوّل الأميركي الإسرائيلي من جثث الشعوب والقضايا العادلة المغدورة. وهو لا يعادي واشنطن ولا إسرائيل الممثّلة لها في المنطقة، وإنّما يقاتل من أجل زيادة حصّته من الفريسة العربية. فما يوحّد بين طهران الخامنئية وواشنطن الإمبريالية هو التفاهم على تحييد المشرق العربي ونزع أنيابه وتفكيكه ما أمكن، لتسهيل ابتلاعه، أمّا ما يفرّق بينهما فهو الخلاف على اقتسام الغنائم والمصالح المتنازع عليها.

> يشكّل الرهان على تحييد إيران، بالحوار أو المفاوضات، وهماً لا يمكن للاتفاقية السعودية الإيرانية، برعاية الصين، أن تحوّله حقيقة

> لماذا يكون ممكناً الاعتراف بإسرائيل وليس ممكناً تعميقُ التعاون العربي؟

لذلك، ليس هناك أيّ سبب كي تسعى أميركا إلى تدمير مشروع إيران في المنطقة، لأنّ إيران لا تهدّد وجودها، وإنّما تتنازع معها فريسة عربية من الممكن بسهولة التوصّل إلى قسمة «عادلة» فيها، وتخادماً دائماً ومثمراً طويل المدى. فهي تحتاج إليها بمقدار ما تتنافس معها. وليس هناك شكّ في أنّ طهران وواشنطن نجحتا من خلال هذه العلاقة في تقسيم العالم العربي معسكرَين تابعَين لهما، وأداتين في خدمة استراتيجيتهما. وكما أنّ واشنطن تستطيع عند اللزوم أن تجرّ طهران إلى طرفها بمساومتها على مكانتها ومصالحها في المشرق على حساب العرب، فإنّ طهران لن تدخل في صراع مع واشنطن، ولا مع ذراعها في تل أبيب، وتدع الطريدة العربية تفلت منها. إنّها لا تبحث أبداً عن حرب مع الولايات المتّحدة، وإنّما عن التفاهم معها على تقاسم المصالح والنفوذ في المنطقة، التي لا تزال واشنطن تصرّ على احتكار السيطرة فيها وعليها. وهذا هو هدف استراتيجية الحرب الطويلة وغير النظامية، التي تمهّد في مرحلة تالية لمفاوضات، وقد بدأت عملياً، ومن ثمّ، التعاون على إدارة المنطقة. مشكلة طهران أنّ واشنطن كانت ترفض أيّ مشاركة لها معتدّة بقدرة إسرائيل في ردع جميع المطالبين بها، محلّيين كانوا أو أجانب.

لكن، رغم عدم التوصّل إلى اتّفاق، نجحت طهران وواشنطن في تنازعهما في تقسيم العرب بينهما، وتجنيدهم في صراعهما الإقليمي. وكلتاهما واثقتان في قدرتيهما على تمويل الصراع طويلاً على حساب العرب ومن جيوبهم. ويمكن القول إنّ نصف دول المشرق العربي قد سقط في الأسر من خلال هذا الصراع. أمّا الخليج، الذي هو درّة العقد، ومن الصعب على واشنطن أن تسمح بالتقاسم فيه، فهو يواجه معادلة صعبة. فكما أنّ الانحياز لأميركا لا يقدّم أيّ حماية جدية، يشكّل الرهان على تحييد إيران، بالحوار أو المفاوضات، وهماً لا يمكن للاتفاقية السعودية الإيرانية، برعاية الصين، أن تحوّله حقيقة. فإيران لن تتوقّف عن متابعة خطّتها للهيمنة الإقليمية، التي تمرّ حتماً بتدمير دول المشرق العربي وتحويلها، كما حصل للعديد منها حتّى الآن، أدواتٍ في آلتها الحربية غير النظامية، وعبئاً على الغرب. وبخلاف ما يتمنّى بعضهم، لن تعمل طهران لصالح العرب وفلسطين وتخسر رهاناتها مع أميركا والغرب، بل إنّها لن تتردّد في التحالف مع تل أبيب عندما يتمّ التفاهم مع واشنطن على اقتسام الغنائم العربية. كما أنّ واشنطن لن تغامر بمعركة مع طهران، التي تسعى إلى تجنّب خرمشاتها لصالح أيّ دولة أو قضية عربية، ولكنّها توظّف التهديد الإيراني لدفع الخليج إلى الالتحاق بإسرائيل. والولايات المتّحدة والغرب، اللذان فقدا المبادرة الدولية، حتّى لو بقيا يمثّلان القوّة العسكرية والاستراتيجية الأكبر في العالم، لن يحميا الخليج وثرواته وأنظمة حكمه ونخبه الحاكمة، ولكنّهما سيستفيدان من الضغط الإيراني عليه، ليزيدا من ابتزازهما له واستغلال قلقه وخوفه من أجل انتزاع المزيد من التنازلات، وإجباره على التطبيع المجّاني مع إسرائيل، الوكيل الحصري للمصالح الأميركية في المشرق. وعندما تحين الساعة، سيتخلّى الغرب عن إسرائيل نفسها، ويسعى إلى حماية مصالحه في المنطقة بالتحالف مع الأقوى، أي مع الشيطان.

هل غيّرت حرب غزة شيئاً في هذا الصراع؟ ... ما حصل من مقاومة الفلسطينيين الأسطورية، وتضحياتهم الاستثنائية، ومن نكسة عسكرية وسياسية وأخلاقية حقيقية لإسرائيل، يفتح معركة، موازية للمعركة الدائرة منذ عقود للسيطرة على الشرق الأوسط، هي معركة فلسطين، ويدفع إلى إعادة ترتيب أجندة السياسة الإقليمية حالياً، على الأقلّ لصالح المسألة الفلسطينية. هكذا، تتحوّل فلسطين من ذريعة تُستخدم في الصراع الإيراني على النفوذ إلى قضية محوريّة، لم يعد من الممكن أن تستخدمها طهران للدعاية والضغط فحسب. وهذا يُعقّد المسألة على طهران، ويزيد من تكاليف الصراع الذي تخوضه منذ عقود. وهو يُعقّد المسألة أيضاً، على واشنطن، فضرب هيبة إسرائيل خسارة استراتيجية كبيرة لأميركا، وإضعاف لموقفها الإقليمي.

ثمّ إنّ ما حصل يُقدّم، بالإضافة إلى ذلك، فرصة استثنائية للحكومات العربية، إذا ما عرفت استخدامها، لإعادة موضعة نفسها في الصراع الثنائي، والدخول فيه طرفاً له مصالح يدافع عنها، بدل من أن تكون كما هي الآن؛ طريدة «يتهاوش» عليها الآخرون. والأمر يتوقّف على طبيعة الدور الذي سوف تلعبه الحكومات العربية في تحديد المَخرَج من هذه الحرب. فإذا نجحت في وضع حجر الأساس لمشروع دولة فلسطينية، تضع حدّاً للتغوّل الإسرائيلي وتُحرّر العرب من الحرب الدائمة منذ 75 عاماً، فسوف تفقد إيران أهمّ مصدر من مصادر دعايتها ومناورتها الاستراتيجية. وبالعكس، إذا قبل العرب التطبيع المجّاني مع إسرائيل، إرضاءً للأميركيين، سيتضاعف رصيد طهران السياسي في حربها مع واشنطن على اقتسام مصالح العرب، وإمكانية الوصول إلى تسوية أميركية إيرانية على حسابهم، ويتعمّق تماهي واشنطن مع تل أبيب.

يبيّن ما سبق ذكره أنّ ما يعيشه المشرق هو أزمة جيوسياسيّة بنيويّة، وبالتالي، لا ينبغي أن نتوقّع نهاية لعهد الفوضى والنزاعات متعدّدة الأقطاب وزعزعة الاستقرار والدمار قبل أن ينجح العرب والخليجيون أولاً، في حلّ نقطة الضعف الرئيسة، التي حوّلتهم طريدةً تتنازع عليها الدول، بدلاً من أن يكونوا، حسب وضعهم وموادهم المادّية والبشرية، الفاعل الرئيس في منطقتهم، وهي (نقطة الضعف) الفراغ الاستراتيجي والافتقار للقوّة الذاتية الحامية والرادعة. ولن يتحقّق هذا من دون مراجعة جذرية لسياسات العرب الأمنية الإقليمية وتجاوز الانكفاء إلى الحسابات القطرية، والرهان على تخزين السلاح، بدل تطوير استراتيجية مشتركة، وتعاون استراتيجي قويّ يؤمّن القوى المادّية والبشرية لتشكيل قوّة ذاتية حامية للمصالح الخليجية والعربية. هذا الفراغ الاستراتيجي هو ما يسمح لواشنطن أن تغرز مخالبها في جسد الدول العربية، ويُغري إيران، وربّما غيرها في المستقبل، بالتنافس معها على الفريسة العاجزة. فمن دون حلّ هذه العقدة لن يكون المستقبل مختلفاً عن الماضي، بل ربّما أسوأ بكثير. ولا تنفع الثروة الكبيرة في ردّ هذا التحدّي لأنّها، بالعكس، هي التي تثير لعاب الفاتحين.

هل هذا ممكن اليوم؟... نعم. لماذا يكون ممكناً الاعتراف بإسرائيل وليس ممكناً تعميقُ التعاون العربي؟ لماذا تستطيع إيران أن تخوض حرباً بالوكالة ضدّ أميركا في المنطقة، وتنازعها اقتسام المصالح العربية، ولا يستطيع العرب التفاهم على إيجاد مركز قوّة لحماية مصالحهم تجاه الأميركيين والإيرانيين المتنازعين على ثرواتهم، والمتفاهمين على تجريدهم من سيادتهم؟ لا يزال ممكناً اليوم، لكنّه لن يكون كذلك بعد حين. كلّ ما يُحتاج إليه التغلّب على الخوف المزمن وتجاوز انعدام الثقة بالذات، وبالآخر القريب، وبالشعور بالمسؤولية إزاء ما تعانيه شعوب المنطقة من موت وتشرّد وبُؤس، وما يهدّد وجودها ذاته من مخاطر. وأخيراً، تجنّب تكرار سيرة ملوك الطوائف الأندلسيين ومصيرهم.

(أكاديمي وأول رئيس للمجلس الوطني السوري)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات لياك حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads